(٦٦)

"لا تتعجل الابتعاد بعد اقتراب"

نِعمٌ كثيرة لم يكن يدرك أنها لديه، لأنه لم يكن مشغولاً سوى بما حُرِم هو منه ويتمتع به غيره ممن حوله. لم تكن نظرات عينيه تقع إلا على ما يفتقده، مُعرضة كل الإعراض عن كل ما يمتلكه. فحرمته نظرته تلك من راحة البال، وسكينة النفس، وجلاء الخاطر، وصفاء القلب، وتسبب نكرانه لما لديه من نعمٍ شتى فى نقصانها يومًا بعد يوم، إذ كان بحثه الدائم عما مُنِع عنه وحُرم منه بدايةً لطريق كفرانه بالنعم الأخرى التى أسبغها خالقه عليه، بينما حَرم آخرين غيره منها. فانتهى ما بدايته النكران وعدم الشكران إلى الخذلان والفقدان.

وتحول القرب إلى ابتعاد، لأن الدعاء كان لنيل العطايا والهبات، لا رجاءً فى رضا المعبود، أوأملاً فى الوصال غير المقطوع. ولما توقف الشكر، كان من الطبيعى أن يتوهج كل فُجر، ومع ذلك كانت رحمة الخالق سابقة لغضبه، وحِلمه محاطًا بلُطفه، فكان التمهل على العباد لحين عودتهم للتوَّاب، وأوبتهم لقابل الذنب قبل حلول العقاب.

وبالفعل عاد العبد لرب العباد الرحمن الوهاب، وأناب للرحيم الغفار، شاكرًا لأنعمه غير مكترثٍ بما حرمه أو بما منعه ، بل أضحى مشغولاً بتوظيف أية نعمة عنده ليستفيد منها كل من حوله.

لقد أدرك قبل فوات الأوان أنه الآن ليس فى عالم النعيم ودرجاته، بل هو فى دنيا العمل والابتلاء، وبما أن الجميع إلى زوال إلا وجه الرحمن، فحياته القصيرة ليست للاستغراق فى الملذات، أو لطلب الكثير من الأموال والمزيد من الأولاد، بل هى للاستزادة من الباقيات الصالحات، وطلب رضوان الحنان المنان، وشكره على ما أعطى وعلى ما منع شكرًا يُرضى الرزَّاق، الذى يهب من يشاء بغير حساب، ويُعِّد من اصطفاه من عباده لرفع درجاته وإعلاء مكانه فى جنات تجرى من تحتها الأنهار.